جدلية اللغة والمجاز عند القاضي البيضاوي

د هشام رحال
قسم اللغة والادب العربي – المركز الجامعي أحمد زبانة .
غليزان . الجزائر

ملخص :

أخذت لغة القرآن الكريم بألباب من سمعوه، وألفوا ألفاظه، وعلت الأصوات بتلاوته، وشنفت الأسماع بكلماته وحلو بيانه، ووقف علماء المسلمين يفسّرون ما غمض من ألفاظه ومعانيه، ويضعون في ذلك المؤلّفات اللغوية، وهذا باعتباره مبتدأ كثير من النّظريات اللغوية والبلاغية التي ارتبطت بتفسير ه، مما أثّر في طبيعة الدّرس اللغوي على نحو عام، وأعطاه طابعه الخاص الذي يرجع في جذوره الأولى إلى البحث في أصول اللغة والبيان المتعلّق بالبلاغة، لذلك جاء بحثنا ليميط اللّثام عن جدلية اللغة والبلاغة المتمثلة في المجاز، محاولين الوقوف في تفسير البيضاوي على بعض النّماذج التي عالج فيها الرّجل الآيات القرآنية من منطلق تأويلي.

الكلمات المفتاحية: اللغة، المجاز، النصّ القرآني، التأويل.

Abstract :

The scholars of the Muslims interpreted the ambiguity of his words and meanings, and put in that linguistic literature, and this as a beginner many of the linguistic and rhetorical theories that have been associated with his interpretation, which is the language of the Holy Quran with the words of the people who heard him, and the words of his words, Influenced the nature of the language lesson in general, and gave it its own character, which is rooted in the first roots to research the origins of the language and the statement on rhetoric, so our research came to reveal the dialectic language and eloquence in the metaphor, trying to stand in the interpretation of albaydawi on some models Treat the man out of the Koranic verses explanatory.

Keywords: language, metaphor, Quranic text, interpretation

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تقديم:

الحضارة العربية هي حضارة نصّ، ذلك أنّ مدار الثّقافة العربية الإسلامية هو النصّ بالأساس، ونعني أنّ مدار الاهتمام فيها هو "النصّ القرآني، ومدار نشأة العلوم وتأصيلها إنّما هو هذا النصّ التّأسيسي ببعده العقدي والمعجز بفنون اللغة وضروب الدلالة فيها"[1] وهذا بحكم المعرفة الكامنة بين دفّاته من عقيدة ولغة ونحو وصرف، وكلّها تَنْشدُ المعنى؛ وإن أمكننا اختزال الحضارة في بعد واحد صحّ أن نقول أنّ "الحضارة المصرية القديمة هي حضارة 'ما بعد الموت'، وأن الحضارة اليونانية هي حضارة 'العقل'، أما الحضارة العربية الإسلامية فهي حضارة النصّ"[2] فاختلاف أُسس الحضارات باختلاف اهتمامها، فمن حضارة ما بعد الموت التي تُقدّس العالم الآخر، إلى تقديس العقل واعتباره المُحرّك لعجلة الحياة، إلى النصّ باعتباره المُقدّس في الفكر العربي الذي أساسه القرآن الكريم.

أخذت لغة القرآن الكريم بألباب من سمعوه، وألفوا ألفاظه وذلك "منذ أن تصافحت العيون برؤيا الكتاب الكريم، وعلت الأصوات بتلاوته، وشنفت الأسماع بكلماته وحلو بيانه، ووقف علماء المسلمين يفسرون ما غمض من ألفاظه ومعانيه، ويضعون في ذلك التواليف"[3] المختلفة لسبر أغواره فهمًا للمعنى وبلوغًا لمقاصده؛ والخطاب الأشعري عن طريق تتبّع نسقه ورصده أثناء عملية التكوّن والتشكّل، حيث اتّضحت فيه قراءتان "يقوم بهما العقل الأشعري للقرآن قراءتان متكاملتان: قراءة القرآن باعتباره خطابًا في العقيدة، وقراءة القرآن بحسبانه كتابًا في الشريعة"[4] وقد حضرتا ممتزجتين في الخطاب البيضاوي، هذا العالم الأصولي المفسّر "هو عبد بن أبي القاسم عمر بن محمد بن أبي الحسن علي، وكان يُكنّى بالبيضاوي، الشيرازي، الفارسي، الشافعي، القاضي المفتي، العالم بالفقه وأصول الفقه، والتفسير وأصول الدين، والحديث والمنطق، والعربية والنحو، والتاريخ والهيئة.ولد بالبيضاء، وتولّى القضاء بشيراز، وارتحل إلى تِبريز لنشر العلوم والمعارف، مات سنة 685هـ، ودفن بتِبريز"[5].

مؤلّفاته:

1- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ويسمّى تفسير البيضاوي، وقد اشتهر به البيضاوي أثناء حياته. وتفسيره هذا عظيم الشأن، غني عن البيان، لخّص فيه من كتاب (الكشّاف) للزّمخشري ما يتعلّق بالإعراب والمعاني والبيان، ومن (التفسير الكبير) للفخر الرازي ما يتعلّق بالحكمة والكلام، ومن تفسير الراغب الأصفهاني ما يتعلّق بالاشتقاق، وغوامض الحقائق، ولطائف الإشارات.

2-شرح مصابيح السنّة للبغوي، سمّاه تحفة الأبرار.

3-الغاية القصوى في دراية الفتوى في فروع فقه الشافعي.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

4-منهاج الوصول إلى علم الأصول، وهو المختصر المشهور في أصول الفقه.

5-شرح المطالع في المنطق، وهو مطالع الأنوار في الحكمة والمنطق للقاضي سراج الدين الأرموي.

6-لبّ الألباب ف علم الأعراب، اختصر فيه الكافية لابن الحاجب.

7- طوالع الأنوار في أصول الدين.

8-مصباح الأرواح، اختصر فيه طوالع الأنوار في أصول الدين.

9-منتهى المنى في شرح أسماء الله الحسنى.

هذا الجمع المختلف لمؤلّفات القاضي البيضاوي إنّما يدلّ على خصب فكره، وسعة حقله المعرفي واحتفاءه بالفكر الأشعري واشتغاله بالنّظر والمعرفة، ما يجعلنا نقرّ أنّنا أمام فعل معرفي كبير ونشاط فكري إبداعي من المستوى العالي، وهذا ما يحرّك فينا رغبة قراءة ما كتبه الرجل على نحو يمكننا من محاولة استيفاء واستخلاص فكره.

حقيقة الاهتمام بلغة النص الديني القرآن الكريم، أثارت كثيرا من القضايا التي تتعلق باللغة وبداياتها الأولى في هذا الوجود "لأنه كان مبتدأ كثير من النظريات اللغوية والبلاغية التي ارتبطت بتفسير القرآن الكريم، مما أثّر في طبيعة الدّرس اللغوي على نحو عام، وأعطاه طابعه الخاص الذي يرجع في جذوره الأولى إلى البحث في أصول اللغة"[6] بغية تحديد المنهج القويم لدراستها والتعمّق فيها تحقيقًا لغاية الفهم واستنباطًا لأنواع الدلالات الكامنة في بنيتها؛ وهو ما يأخذنا إلى القول إن الأشاعرة استندوا على قواعد رأوا فيها السند من "تطويع اللغة للعقائد، والقول بالتّأويل، واستخدام الأساليب البلاغية لنفي الصّفات، كالمجاز، والاستعارة، والكناية، والتورية، والمبالغة، والتمثيل وغيرها"[7] وكل هذا كتجاوز للّغة الأولى نحو توظيف المجاز واستحداث العبارة البليغة المؤثّرة.

لذلك فإنّ الرّجوع إلى ما يتقرّر عند أهل اللغة يكون فيه حسم الاختلاف ودفع التنازع القائم من التناظر والحوارات الكثيرة حولها، ذلك إنّ "اللغة العربية هي قطب الرّحى في النّظر في القرآن والتدبّر في أحكامه، وأنت لو تأملت المسيرة الأشعرية في الاحتجاج لإعجاز القرآن، لوجدت أن تلك المسيرة تكون دومًا من القرآن إلى اللغة: فالقول القرآني يُفهم باللغة العربية ويؤخذ في ضوء دلالته فأخص ما يميز القرآن عند المتكلم الأشعري هو عربيته"[8] فعربية القرآن هي الحجّة والدّليل على إعجازه من جانب أوّل وهي كنهه ومعناه من جهة ثانية، والأشاعرة إذ نحَوا هذا المنحى فهي تستعيد التقليد الفكري العربي الإسلامي برمته، ذلك إنّ أول قوانين الخطاب الأشعري والمميزة له "هو قانون تقديم المنقول على المعقول فإن معنى النّقل يجب أن يفهم منه اللغة واللسان أولاً،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فالخطاب الأشعري هو خطاب تقديس اللغة العربية والإشادة بها، فهو يجد معناه ودلالته في معنى اللغة العربية ومبناها ويستمد حقيقته من حقيقة بنائها... الأشعرية انفردت في ذلك التعظيم بجعل التوقيف من علامات المذهب المميزة وجعلت من اللغة لا جزءًا من النقل فحسب بل إنها سعت إلى العقل وعالمه لتحدّه باللغة وتحكمه باللسان"[9] بين المنقول والمعقول تتأرجح الرؤية الفكرية العقائدية للأشاعرة، فهذا الطّرح ينطلق من مُسلّمة اللغة التي يراها الحصن الذي يُحاط به العقل عبر آلة اللسان.

حقيقة اللغة بين التّوقيف والاصطلاح

تقودنا القراءة الواعية للخطاب البيضاوي والبحث الجادّ عن مكنونات الخطاب الأشعري ومكوّناته، وذلك بالبحث عن البعد الخفي أو المحتجب واستنطاقًا يروم إكراه هذا الخطاب على البوح بالخلفيات الكامنة في ثنايا هذا الخطاب، إلى الحديث عن قضية نشأة اللغة في التّراث العربي التي أخذت حيّزًا شاسعا لدى مفكريه من أصوليين ومفسرين ولغويين ومتكلمين، حتى أصبحت مقدمات كتبهم لا تخلو من الحديث عن نشأتها وما دار في فلكه من كلام؛ والمتمعن في كل ذلك يجد إنّ القضية برمّتها دار فيها شقان وتياران: تيار يرى بالتوقيف الإلهي، وآخر بالمواضعة والاصطلاح، وللوقوف على الأمر نستجلي هذا في المدونات البيضاوية على رأسها تفسيره ‹ أنوار التنزيل وأسرار التأويل› و ‹منهاج الوصول إلى علم الأصول›.

قدّم البيضاوي كلامه بالحديث عن سبب الوضع وأنه صنو الحاجة الماسّة إلى التّعارف والتّعاون، بذلك كان وضع اللغة، إلا إنه لم "يثبت تعيين الواضع"[10] وهو قول المعتزلة متمثلا في عباد الصّيمري الذي ذهب إلى أنه بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حاملة للواضع على أن يضع "وكان بعض من يرى رأيه يقول: أنه يعرف مناسبة الألفاظ لمعانيها فسئل ما مسمّى إدغاغ وهو بالفارسية الحجر فقال: أجد فيه يبسًا شديدا وأراه الحجر"[11] بحسب الوضع والاصطلاح اللغوي. وجمهور أهل اللغة متّفقون على أنه لا يشترط في وضع اللفظ للمعنى مناسبة له، فإن الموضوع للضدّين كالجون للأسود والأبيض لا يناسبهما فلو جُعلت علاقة اللفظ بالمعنى كلها قائمة على المناسبة الطبيعية لاتّسمت اللغة بالجمود بعد أن كانت حيوية؛ الفكرة في الحقل المعرفي الأصولي ارتبطت بقضية الوضع يوم تحدّثوا عن الواضع، وربطوها بقضية نشأة اللغة وما دار في فلكها، وكل تدليل على ما بين اللغة والفكر والعالم الخارجي من تواصل واتّصال.

- **التوقيف الإلهي:**

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

سار القاضي البيضاوي في غالبية أدلته على طريق القول بالتوقيف الإلهي، وهو مسار القائلين "بالنّظرية المحافظة من أهل السنة...والقائلون به يُدعون بأصحاب 'النص النّقلي'، وقد استخدموا رديفًا له مصطلح 'الوحي'، وفي كلتيهما تتوافر الرؤية الدّلالية"[12] فالتّوقيف الإلهي قُرن بقضية النّقل المُقابلة للعقل وهي ثنائية دار الجدال فيها، حيث الأشاعرة وسلفهم المعتزلة أدخلوا النص في رحى تستجيب لغاياتهم المُعلنة والخفية المطلوب تنويرها بالاستدلال، أما الرؤية التوقيفية "من حيث المستوى الدلالي: مما يتوقف فيه على ما جاء عن طريق النبوة والوحي"[13] فالخطاب القرآني في ثناياه دلائل على الثّبات للغة.

ونصرة لمعتقده الأشعري، تأييدًا لشيوخه، وعلى رأسهم أبو الحسن الأشعري حيث اقتفى البيضاوي آثارهم حيث نراه يقول في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾[14] بقوله: "إمّا بخلق علم ضروري بها فيه، أو إلقاء في روعه، ولا يفتقر إلى سابقة اصطلاح ليتسلسل... والمعنى أنه تعالى خلقه من أجزاء مختلفة وقوى متباينة، مستعدًّا لأدراك أنواع المدركات من المعقولات والمحسوسات، والمتخيلات والموهومات، وألهمه معرفة الأشياء وخواصها وأسماءها وأصول العلوم وقوانين الصناعات وكيفية آلاتها"[15] فيخلق الباري علمًا في ذهنية آدم تجعلُه يُدرك كل الموجودات من حوله، إلا أنّه لا يبتعد عن اصطلاح سابق حتى يتسلسل الأمر، أو أنّ "الله علّق كل مسمّى اسمًا مخصوصًا به، فلا مجال للتّأويل إلا إذا توفّر البرهان الذي يهدي إليه المقصود"[16] فخلق التّسمية لكل الأعيان المُحيطة بآدم عليه السلام ينفي مجال التأويل.

في تفسيره لقوله تعالى:﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾[17] يقول: "لغاتكم بأن علّم كل صنف لغته أو ألهمه وضعها واقدره عليها، أو أجناس نطفكم وأشكاله فإنك لا تكاد تسمع منطقين متساويين في الكيفية"[18] فالاختلاف اللغوي عن طريق الإلهام أو الوضع ثم الإقدار، وما يدل عليه الاختلاف في المنطق والسمع. ومن خلال هذا التعاضد المتعدّد لأدلة البيضاوي نستنتج كقراءة أولية أن المسألة تتأرجح عنده بين التوقيف والاصطلاح، بين إطلاقية اللغة في بُعدها الوجودي، وثباتها في الاستعمال البشري كما نزلت.

يعقد البيضاوي بالقول الصريح في المسألة برمتها بقوله: "وأن اللغات توقيفية، فإن الأسماء تدل على الألفاظ بخصوص أو عموم، وتعليمها ظاهر في إلقائها على المتعلم مبينا له معانيها، وذلك يستدعي سابقة وضع، والأصل ينفي أن يكون ذلك الوضع ممن كان قبل آدم فيكون من الله سبحانه وتعالى"[19] فالأسماء التي تدلّ على معنى خاصّ أو عام، عن طريق تعليمها للمُتعلِّم، ممّا يستدعي الوضع السابق تفاديا للّبس، والوضع غير محدّد الزمان والمكان والأشخاص، فيبقى التوقيف بالوضع الإلهي، وذلك بالاستقراء الأصولي وفيه تحليل فلسفي للفكرة من البيضاوي.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أمّا تفسيره لقوله تعالى: ﴿ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ [20] يرى "أنّ الاسم هو المسمى وأن اللغات توقيفية، إذ لو لم يكن كذلك لم يتوجه الذم والإبطال بأنها مخترعة لم ينزل الله بها سلطانا وضعفها ظاهر"[21] فتوقيفية اللغة وإلهيتها وقُدسِيتها جعلت من الاسم هو المسمى ومتعلّقًا به، والصّريح في هذا الذم في التّسمية، وإبطال الاختراع من العبد .ويضيف البيضاوي: "ولهذا نقول إن قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ يقتضي أنه تعالى علمه جميع اللغات"[22] وهي التي يتكلم بها آدم وبنوه من بعده، وهو تدليل على التعدّد اللغوي الذي وسمه اللغويون العرب باللهجات. وفي معرض حديثه عن الواضع يقول: "والشيخ زعم أن الله تعالى وضعه ووقف عباده عليه لقوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ و ﴿ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ و﴿ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾"[23] والوضع المعقود هنا من البيضاوي متعلق باللغة ككل، وهو كما سبق خاص بالذات الإلهية، وهذا باعتبار أنّ الواضع مجهول زمانا ومكانا.

يعقد البيضاوي قولاً يعترض فيه على الاصطلاح، حيث إنه "لو كانت اصطلاحية لاحتيج في تعليمها إلى اصطلاح آخر ويتسلسل، ولجاز التّغيير فيرتفع الأمان عن الشرع"[24] فالظاهر من هذه النصوص أنها توزعت على ثلاثة محاور تركيبية فالألفاظ "علَّم، الأسماء، عرضهم، ورد الفعل الأول بصيغة الزمن الماضي دَلالة سياقية أولى...ثم جاءت الدّلالة السّياقية الثانية الأسماء، ثم تلتها الدّلالة السّياقية الثّالثة بصيغة الزمن الماضي عرض مع حملها ضمير هم الذي يعبر به في العربية عن جماعة العقلاء"[25] فالمرتكز الدّلالي لهؤلاء هو صيغة الفعل الماضي علَّم، والذي أوّلوه بما يخدم أبعاد مُعتقدهم الفكري، وهو عندهم يحمل صفة الدّلالة التلقينية الكامنة في طيات الفعل علَّم الذي يترتب عليه العلم غالبا، باعتبار أنّ أهل التّوقيف يجعلون من قوة الفعل ودلالته السياقية أحد الركائز التي يستندون إليها في التّدليل على قوة الحجة لديهم. إلا أنّ التساؤل الذي يطرح نفسه هو: هذه الدّلالة التلقينية عند البيضاوي هل تحمل سمة الشّمول أو الكلية؟ أم أنها تحمل سمة الجزئية أو البعضية؟ وهو أمر نستشفُّه من تعامله المباشر مع فحوى الآية، حيث الظاهر أن الفعل عنده يحمل سمة الشمولية أي أن الله علمه كل شيء.

في هذه النظرية أن الألفاظ الموضوعة بإزائها المعاني من الله سبحانه وتعالى، "بمعنى أنّ المعنى الموضوع الأساس للفظ لم يأت من طريق المُواضعة والاصطلاح، ولكن هو من طريق الإله"[26] إما بخلق علم ضروري بها فيه، أو إلقاء في روعه، ولا يفتقر إلى سابقة اصطلاح ليتسلسل، والتّعليم فعل يترتب عليه العلم غالبا، ولذلك يُقال علّمته فلم يتعلم.

من خلال البحث عن كنه الدّلالة عند البيضاوي يتبين لنا حدوث تصادم فكري بين الأبنية الفكرية وهذا بسبب اختلاف آراءه في كثير من القضايا، ما يعني أنّه حيال تردد أو حرج معرفي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لغوي ، إلا أنّ هذا التردّد ليس نتيجة لنقص في تعامله مع التّراكيب القرآنية وإنما هو من قبل التطور الفكري الحاصل معه، إضافة إلى تأثير ابن جني صاحب التوقيف رديف المواضعة فيه، وهذا واضح وجلي في تأكيده على الإلهام والوضع والإقدار عليها؛ وفي الوضع والواضع يقول البيضاوي: "اعلم أنّ التقدّم والتّأخّر قد يكون ذاتيا وقد يكون وضعيا، أما الذاتي فذلك على قسمين: أحدهما: تقدم العلة على المعلول. الثاني تقدم الشرط على المشروط. وأما الوضعي: فإنه على ثلاثة أقسام: أحدها: التقدم بالزمان، ثانيها: بالمكان، الثالث: بالشرف، والأقسام كلها كثيرة النظائر تعرف بالتأمل"[27] اللغة في سيرورتها الوجودية بين المحور الذاتي الذي تجعل اللغة منه فرض منطق الاستعمال التداولي، وبين المحور الوضعي فيأتي عبر زمكانية الوجود اللغوي الوضعي، ثم الشّرف حيث الألفاظ بين متقدّم ومتأخّر، بين شريف ووضيع، وقليل وكثير، فإن الألفاظ على أقدار المعاني كما قال الجاحظ. لكن اللفظ "لا يفيد ما لم يستعمل، وفائدة الوضع إنّما هي إعادة المعاني المركّبة، وإذا لم يستعمل لم يقع في التّركيب، فانتفت فائدته"[28] فالمهمل لا وجود له، والفائدة قاعدة في الوضع داخل الصّيغ التركيبية.؛ أما عن الأسماء التي علّمها الله آدم فقد وقع الخلاف حولها، حيث "اختلفوا في أي الأسماء علم الله آدم؟ فقيل: جميع المخلوقات حقيرها وجليلها، وقيل أسماء الأجناس، وقيل علّمه الأسماء بكل لغة تكلمت بها ذريته...وقال أكثر العلماء: علّمه منافع كل شيء وما يصلح"[29] فالأسماء التي أُلهِمَها آدم بين تسمياتٍ للمخلوقات الموجودة، أو أجناس مختلفة له ولذريته على مرّ الأزمنة.

الاصطلاح كما أسلفنا قدّمته المعتزلة تأسيسًا وانتصارًا لفكرة المُواضعة، فقد "أجمع المعتزلة على أنّ اللغة قائمة على قوانين المواضعة، مما يعني أنّ النّظام اللغوي ممرّراتٌ جماعية ذات وظائف نفعية، ومن ثمّ فإنّ التّأويل هو الاستجابة لقوانين المواضعة، لأن الكلام دال على نحو متعدّد وهو لا يكفُّ عن الإحالة على السياقات اللسانية التي قرّرتها الجماعة"[30] لأنها اعتمدت على هذه الثنائية خدمة للتأويل الذي عوّلت عليه، إذ المُواضعة والاصطلاح تعنيان الحرية اللغوية التي تَقي مُتعامل اللغة التّقييد في تدويره للمعنى. وبذلك تكون المُواضعة "هي القانون الذي يحكمُ اللغة لأنها تنمّ على حالة الاختلاف التي تُهيمن على إدراك الإنسان للوجود، وتدلّ على شقاء الوعي الإنساني وحجم القلق الذي ينتاب نظامه اللغوي"[31] فالتّواضع ينتُج عنه الاختلاف والقلق داخل تواصله اللغوي، مما يُؤدّي إلى نوعٍ من الحرية اللغوية.

لما ربطت المعتزلة الكلام بالعقيدة، تكون بذلك جعلت "الكلام فعلاً مرتبطًا بإرادة المتكلم المستقلّة، فلمّا كان المتكلم فاعلاً للكلام صار من الضّروري النّظر إلى الكلام بوصفه نظامًا مكتنزًا بالدلالات وحاملاً للمعاني"[32] فالأفعال الإنسانية اختيارية كما هو الأصل العقائدي عند المعتزلة، فقد بات القيام بفعل الكلام اختيارًا محضًا مقترنًا بالإرادة، بهذا "فأصل اللغة عند أهل العدل

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والتوحيد اصطلاح وموافقة، في حين أنه عند أهل الحق توقيف وتسليم"[33] لكن الرأي لا يمكن تعميمه على كل من ينضوي تحت سقف الفرقة، وإنما يبقى الاجتهاد والإدلاء بالرأي له وجود واعتبار، إلى هنا نصل إلى أنّ "الباحث في نشأة اللغة كمن يمشي في أرض زلقة، فهو لا يأمن الوصول، وفي مخيلته صوت متأخري الأصوليين كابن الأنباري والتاج السبكي، وهم يقولون: ذكرها في الأصول فضول"[34] الكلام في نشأة اللغة كثر حيث لم يتوصل إلى نتيجة نهائية،لأن الأطراف المتجادلة تبقى متمسّكة برأيها وتدافع عنه باعتباره يخدم تصوّراتها العقائدية والفكرية.

نصل إلى قراءة من كل هذا مفادها أن القول بالتوقيف الإلهي يفرض على المتعامل مع النصّ القرآني ظاهر النصّ وهو المعنى الأول الدالّ عليه، وهو معنى تقود إليه القرائن اللغوية والسياقية ويُفصح عنه مقصود الشارع، بينما القول بالاصطلاح والمُواضعة تتطلب التّعويل على المرجعية اللغوية الذي تشكّل حليفًا قويًّا، حيث يفرض على المتعامل مع الباطن الذي يقود إلى التأويل مباشرة. وهو ما حدث مع القاضي البيضاوي فحينًا نجده يتأول نصوص القرآن الكريم حين تَحضر الروح الاعتزالية في قلمه التي ترى بالاصطلاح، وحينما يتعامل بسطحية يحضر التوقيف والروح الأشعرية. فاللغة سلطة معرفية ومكانها من العقل هي مكان النّقل منه، والنّقل مُقدّم ومَتبوع والتّابع والمتأخّر هو العقل عند الأشعرية، إلا أنّ ذلك يبقى بنسب متفاوتة حسب السياق المعرفي واللغوي.

القول بالتوقيف قاد البيضاوي إلى إثبات المجاز شريطة أن يكون الله هو ناقل الكلمة عن موضوعها في اللغة إلى معنى آخر وهو ما يؤكّد أن أغلب اللغة عنده توقيف مسانِدًا إلى قوله تعالى:﴿ وَعَلَّمَ آَدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ ففكرة التوقيف والاصطلاح والمجاز لا تنفصلان عن قضية اللفظ والمعنى، وكلّ هذا قائم على حذر البيضاوي المفسّر من انفلات المعنى و"لئن تلبّست هذه المسألة بمشاغل عقدية إلا أنّها عبّرت عن رؤية وجودية للغة، إذ إنّها شرط الوجود وبها يتشكّل المعنى في المسمّيات"[35] وهو ما وعاه المفسّرون في تفسيرهم للآية السابقة، فوَعيه بأهمية العلاقة بين اللفظ والمعنى وباتّساع اللسان العربي معجمًا ودلالة، هو الذي حمله على طلب البيان متمثّلاً في المجاز وتأمين سُبله من خلال المباحث اللغوية الدقيقة.

بلاغة المجاز وعلاقته بالمعنى:

ما تمتاز به لغة العرب الاتساع في معانيها، ما يدل على سعة معانيها ورحابة لغتها، ذلك أنّ "التوسّع في العبارة هو وجهٌ من وجوه العدول عن الحقيقة إلى المجاز، دون أن تتوفّر ضرورة علاقة مشابهة بين المنقول والمنقول إليه، ويمكن للمتأمل في الأمثلة المنوطة بالنّظر الوقوف عند مستويين من المجاز ضمن قضية التوسّع: مجاز العموم ومجاز الحذف أو النقصان"[36] فالعُدول

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عن الحقيقة إلى المجاز له دواعيه وأسبابه تتّضح من خلال التعامل مع النص القرآني الذي يعتبر من البيان بأقسامه ما عجزت عنه أفهام العرب، لذا فإنّ ثنائية الحقيقة والمجاز "هي أثر من آثار علاقة اللفظ بالمعنى، فإن الألفاظ قوالب للمعاني يعبّر بها الناس عمّا في أذهانهم من معان وأفكار، فالمعاني مُعبَّر عنها والألفاظ مُعبّر بها، ومن لوازم النظام اللغوي الإنساني أن يكون لكل معنى من المعاني لفظ دال عليه، ويتواضع الناس عليه ويعتبرونه في خطاباتهم"[37] فاللفظ له علاقة بالمعنى تظهر في تعدّد المعنى باعتباره أساس وركن لا حياد عنه في اللغة ككل.

المجاز:

فطر الله العرب على طريقة في الكلام "وأهمّ سماتها الاتّساع وتبديل الدّلالة ومن ذلك نقل الكلام عن ظاهره إلى دلالة أخرى، على أن يرتبط ذلك كله بالسّياق الذي يحدّد المقصود من الكلام"[38] لذلك تحتل التراكيب اللغوية بأنواعها من البيان مبلغًا عظيما، إذ القدرة على صوغ وفهم الأساليب موقوفة عليه، فهو ميزان صحيح وسر من أسرار العربية بداية من الكلمة، ولهذا فإنّ "دلالة الكلمة على المعنى موقوفة على الوضع، وأن الوضع تعيين الكلمة بإزاء معنى بنفسها، وعندك علم دلالة معنى على معنى غير ممتنعة عرفت صحة أن تستعمل الكلمة مطلوبا بها نفسها تارة معناها الذي هي موضوعة له، ومطلوبا بها أخرى: معنى معناها بمعونة قرينته، ومبنى كون الكلمة حقيقة ومجازًا ذا"[39] فالكلمة والمعنى والوضع ثلاث ركائز ذات دلالة قوية واضحة المعالم خاصة ما تعلق بالمجاز.فهو "لدى الأصوليين ما قرّ في أذهانهم من حدود العلم الذي يشتغلون به، ولا ريب أنّ معرفة هذه الحدود تُدني الدّارس من نظرتهم إلى ما يتّصل بالنّص، وهو موضوع بحثهم، ومعاييرهم التي ارتضوها إلا قواعد تنظم دراسته، وتهيئ لاستنباط الأحكام منه"[40] فعلم الأصوليين هو اللغة في وجودها، حيث جعلوها المنطلق لاستنباط الأحكام الفقهية والدلالة الشرعية، في مقابل المتكلّمين الذين نراهم ينشدون الدلالة المطلقة.

تعامل الأصوليون مع دلالة الألفاظ وتقاسيمها المختلفة؛ حيث "كانت قسمة اللفظ إلى حقيقة ومجاز لديهم متصلة بأمرين، أحدهما: الاستعمال، والثاني: السياق، وكلاهما توجّه خاصّ من المتكلم للدلالة باللفظ"[41] والإفادة باعتبار المعنى متأصلاً، إذ أرجع الأصوليون مسألة الحقيقة والمجاز إلى قضية الوضع والتي كانت مدار خلاف بينهم، "فتوقفوا عن قضية الوضع والاستعمال، وهي الحالة التي لا يكون فيها للفظ دلالة خاصة، وقد أَسْموا هذه الحالة الوضع الأول، وفيها يخلو اللفظ من وضعي الحقيقة والمجاز"[42] فاللّفظ لا يحمل دلالته بذاته، ولكن المتكلّم هو الذي يُحمّله هذه الدّلالة، فيوجهه إلى الدّلالة الحقيقية على المسميات وهو أصل الوضع، أو يحمله على دلالة أخرى وهو المجاز، على ضوء هذا فالمجاز فنّ أصيل في لغة العرب مُلازم لكلامهم لما فيه من

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

دقّة في التّعبير وإخراج المعاني المحسوسة إلى المعاني المجرّدة، "فهو خير وسيلة للاتّساع في اللغة والتحرّر من الضّيق اللفظي والانطلاق في مجالات الخيال بما يصفه من علاقات لغوية مبتكرة توازن بين الألفاظ والمعاني في الشّكل والمضمون وتلائم بين عمليتي الإبداع والتجديد في دلالة اللفظ الواحد للخروج باللغة إلى ميدان أوسع وأرحب"[43] فالتّوسعة لفتح المجال أمام المعنى للولوج إلى الخيال وهذا ما يكسبه دلالات إضافية.

ارتبط المجاز بقضية متعلّقة بفهم النص المقدّس «القرآن الكريم»، ذلك أنّ قراءة القرآن تَنشُدُ الفهم عن الله وتتوخّى استخلاص أصول الأدلة وكلّياتها، مما قادها إلى فعل معرفي اتّسم بالتأويل، حيث ارتبطت قضية المجاز "بمسألة التّأويل ارتباطًا وثيقًا، إذ يعدّ الفهم المجازي أهم آليات التّأويل، وآكد أدواته، لأنّ المعنى المجازي هو بحث في دلالة الألفاظ والتّراكيب، توصلاً ونفاذًا إلى معانيها المستكنّة، ولذا عني العلماء المسلمون بما يضيفه المجاز إلى الدلالة اللغوية وينقله منها وإليها"[44] هذا الفهم المجازي الذي يَنشُدُ المعنى من خلال الدلالة اللغوية المُنعقِدة من ثنائية اللفظ والمعنى، يَجعل منه التأويل آلية لابدّ منها تحقيقًا للمعنى وإثباتًا له. لذلك قام البيضاوي بتخريج الألفاظ العربية على معتقده الأشعري؟. مرة فوض ومرة أوّل، يكون تجاوز الدلالة القطعية للفظ الأحادي المعنى إلى دلالة أخرى ظنّية على حدّ تعبير علماء الأصول يُسرع فيها باب التأويل والاجتهاد مما سنتبيّنه.

لهذا فلورود المجاز في لغة العرب وفي فكر علماء التراث القدامى اتّصال بقضية الظاهر والمؤوّل التي طُرحت بين دفّات الفكر الأصولي، وبالأخصّ التفسير حين استعملها المفسّرون خدمةً لأغراضهم العقائدية ذلك أن "المجاز حمّال وجوه وتأويلات، وهو مظهر من مظاهر الاتساع والاشتباه في اللّسان العربي"[45] لأنّه يَمنح مُتعامل اللغة خيارات يُدخل فيها جُهده وفهمه للمعاني وهذا خدمةً لتوجّهه العقائدي كما هو الشّأن مع البيضاوي الأشعري الذي يرى أنه "وارد في القرآن والحديث شريطة القرينة"[46] وهذا إثباتًا له لأن هناك من نفاه في اللغة وأثبته في القرآن، تحقيقًا لغاية متعلّقة بتأويل الآيات والصفات؛ وشرط القرينة سواء كانت حالية أو مقامية، ويرى أنه يُعدل إليه "لبلاغة لفظ المجاز، أو لعظمةٍ أو زيادة بيان كالأسد"[47] اللفظ المُختار بدل الحقيقة ربما يكون ذو بلاغة وتأثيرًا في السّامع أحسن لو استعمِل لفظ الحقيقة، أو لبيان عظمة المُجر له أو زيادة البيان.

هذا وقد تضاربت الآراء في وقوعه في اللغة ونصوص الوحي قرآنا وسنة، "واختلافهم هذا لم يكن ترفًا فكريًا ولا خلافًا شكليًا، بل كان الخلاف في تلك المسألة ناشئًا من موقف المذاهب الإسلامية من بعض نصوص الكتاب والسنة، التي يُوهم ظاهرها المشابهة بين الله سبحانه وبين خلقه"[48] وهو أمر تعلّق بالعقيدة، لذلك دارت فيه صراعات فكرية، فوقع النّزاع الفكري، فأصبحت

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كل فرقة تَنشُد المفاهيم الأولية التي تُنتِج لها فعالية التّأسيس والتّنظيم ضمن حقل دلالي مُقفل وتامّ التّكوين، حيث يُلتزم به ولا يخرج عن ذلك الحقل ومجاله.

للبلاغيين رؤية تنمّ عن ثاقب نظر حول الصدق والكذب في المجاز إذ فرّقوا بينهما، وذلك بأن المتجوّز مُتأوّل في كلامه على أساس العلاقة الواصلة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي، "ومقيم القرينة التي تعين مراده من التّعبير دون تمويه أو خداع، وذلك يطبع مجازه بطابع الصدق الفني والجمال الأسلوبي، وأما الكذب فليس فيه علاقة ولا قرينة هادية وإنّما هو أسلوب يقوم على فوضى المعاني وعبث الألفاظ ولا مكان له في دائرة البيان الساحر"[49] فالمجاز قرين التّأويل باعتبار ثنائية اللفظ والمعنى، إلا أنّ القرينة تبقى المُحدّدة لمراد المتكلم إبعادًا للإيهام وطبع الصدق الفني معه لأن الكذب يوقع في فوضى المعاني، ونخلص إلى قول ابن الأثير الذي يورد قولين فيه حيث "ذهب قوم إلى أن الكلام كله حقيقة لا مجاز، وذهب آخرون إلى أنه كله مجازا لا حقيقة فيه وكلا المذهبين فاسد عندي"[50] فعنده مبدأ التوسّط وتجنب المغالاة في الميل إلى أحد الجانبين على حساب الآخر، فليس كل الكلام حقيقة، وليس الكلام كله مجاز، فهما في كلام العرب حسب المقام.

إنّ القواعد الدقيقة التي وضعها علماء أصول الفقه لاستنباط الأحكام كانت "مدار عملهم فيما بحثوه من قضايا اللغة والدلالة، ولم يكونوا يلتفتون إلاّ إلى الدّقة في استنباط هذه الأحكام، ولذلك لم يعبئوا كثيرًا بدراسة الاستعارة ومواضعها وأنواعها، وإنما كان وكدهم معرفة الدلالة للوصول إلى المعنى"[51] فعلى محوري اللغة والدّلالة كان مدار الاستنباط الذي توخّاه الأصوليون دون أن يُلقوا بالاً لبعض قضايا البيان كالاستعارة لأن مُبتغاهم الحقيقي هو المعنى المنشود الكامن في الصيغ التّركيبية، ذلك "أنّ النّص الشرعي والقرآني منه على وجه الخصوص، يتأسّس على اللغة، ويستثمر لأداء الدلالة واحتواء الوقائع، كل طاقات هذه اللغة في جميع مستوياتها النّسقية والسياقية والمفرداتية والتركيبية"[52] وهذا بلوغًا للمرام و تحقيقًا للفهم المنوط بالمكلّف.

لذلك جاءت مقاييسهم للمجاز مضبوطة فيها "الكثير من القواعد، والقليل من التّحليل اللغوي للنص، وقد نقلوا بقواعدهم هذه دراسة اللغة بصورة عامة، ودراسة المجاز بوجه خاصّ إلى المعايير والقواعد، وأرسوا دعائم النظر إلى المعيار قبل النظر إلى النص، وإن كانت المعايير مستنبطة من النصوص، إلا أن القواعد أضحت مجردة عن النص، وصارت تقدّم على النظر فيه، ولم يبق هناك استقراء جديد للنصوص"[53] لأنّ القواعد المضبوطة صارت تتحكم في هذا الاستدلال والاستقراء، والحقيقة أنّ هذا يصحّ في مجال الدراسات الأصولية، لكنّه لا يتفق والدراسات اللغوية، لأن هذه الدّراسات تبتغي من الدارس ألا يحكم القاعدة في النص قدر ما يجعل النص حيا يؤدي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لدراسة ما فيه من معايير وقواعد "ولهذا أصبح اللفظ الذي يحتمل التعدّد في المعنى سلاحًا ذا حدّين، ومنها احتمال الحقيقة والمجاز في النص الواحد؛ ويصبح المتلقي يكابد ما يمكن تسميته بأزمة دلالة اللفظ على المعنى وخاصة من حيث ترجيحه على هذا المعنى أو ذاك ومطابقته لمقصدية صاحب النص"[54] التعدّد في المعنى ميزة اتّسمت بها العربية، إلاّ أنّها أضحت مُؤثّرة على الفهم باعتبار ثنائية الفهم بين الحقيقة والمجاز، ممّا جعل المتلقّي يُصارع علّه يَظفر بواحد من الفُهوم للوصول إلى المعنى.

تكون برزت لدى الأصوليين فكرة هي "'لازمنية' الحقيقة، و'زمنية' المجاز، بمعنى أن الحقيقة ثابتة، أما المجاز فمتغيّر، ودليل القائلين بهذا أنّ الحقيقة يقاس عليها والمجاز لا يقاس عليه"[55] وهي متعلّقة بقضية التّأويل في البيئة الأصولية، ذلك أنّ هذه الآلية أصبحت تسلّط على النّصوص الشرعية قصد استخراج المعنى المُراد، إلا أن الفرق بالأخص المعتزلة والأشاعرة جعلته في خدمة أغراضها العقائدية.

كلمة المجاز التي جاءت في تفسير البيضاوي أوسع دلالة وأرحب أفقا، فهي عنده الطريق التي سلكها القرآن في التعبير عن المراد، لا على المستوى الأسلوب فحسب، بل على مستوى المفردات أيضا؛ فالرجل استخدم كلمة المجاز التي كانت مفتاح أبي عبيدة إلى فهم أساليب القرآن بالمفهوم نفسه الذي قصده أبو عبيدة، يبقى أنّ البيضاوي قدّم في تفسيره تأويلا من خلال تحليل واضح ودقيق لما عرض له من مجازات القرآن الكريم في عبارة وصيغة وأسلوب ممتع ينبئ عن حسّ أدبي عال وذوق فني رفيع، حيث استطاع البيضاوي بهذا المنهج في شرح مجازات القرآن أن يَنفُذ إلى المراد منها.

المظاهر البلاغية التي حواها النّص القرآني على كثرتها، وهو أمر تنبّه له القدامى إذ أجمعوا على أن كل المظاهر البليغة وأرقاها إنّما تنحصر في الاستعارة التي هي من قبل المجاز،والدّافع لهم على توظيفها وبيان مواضعها واستعمالاتها هو كثرة ورودها في النص القرآني، فهما "يُعتَبران وسيلتين لخلق معانٍ جديدة من وجهة نظر توليد المعنى، ومن ناحية التّحليل"[56] الألفاظ أوعيةٌ للمعاني التي تخرج للوجود اللغوي بأشكال وأصناف مختلفة أهمها المجاز والاستعارة المتعلّقان بالبيان. يقول ابن رشيق "الاستعارة كثيرة في كتب الله عزّ وجلّ كلام نبيه، من ذلك قوله تعالى: ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا ﴾ [57] فالشهيق والغيظ استعارتان"[58] ولعل هذا الاستئناس بالمجاز يرجع لأهمية إدراكهم له في العملية الإبلاغية.

ويتّضح معنا أنّ جُنوح البيضاوي إلى المجاز في تأويله وتَعويله عليه، بحكم المجاز يُحقّق من المعنى لديه في تأويله مالا تُحققه الحقيقة حيث يقول البيضاوي "يعدل إلى المجاز لثقل لفظ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الحقيقة كالخَنْفَقيق، أو الحقارة معناه كقضاء الحاجة، أو لبلاغة لفظ المجاز، أو لعظمةٍ في معناه كالمجلس، أو زيادة بيان كالأسد"[59] ذلك أنّ العدول عن الحقيقة إلى المجاز لدواعي إذ قد يثقل لفظ الحقيقة على اللسان سواء كان ذلك لمفردات حروفه أو لتنافر تركيب أو ثقل وزن اللفظ كما في لفظ الخنفقيق الذي استدل به البيضاوي الذي يدل على الداهية عند العرب. حيث التعبير "بالمجاز قد يكون أدخل في التّعظيم وأبلغ في المعنى كالمجلس العالي والجناب الشريف، وما أشبه هذه الألفاظ فإنها أبلغ من قولك فلان"[60] أما كونه زيادة بيان حال المذكور مثل: رأيت أسدًا فإنها أبلغ في الدّلالة على الشجاعة من رأيت إنسانًا في الشجاعة كالأسد؛ نصل بها إلى أنّ البيضاوي طوّع المعنى بآلية المجاز خدمة لمُعتقده الأشعري والمعرفي، ذلك أنّ المفسّرين استندوا إلى بلاغة النّص القرآني وطوّعوها للمعنى المُراد تأويله.

في استدلال البيضاوي على المعنى نَلحظُ أنه انطلق من البيان وارتكز عليه في فهم الدلالة وتأويلها وتحويلها حسب موجّهاته وغايته الفكرية والعقائدية، وذلك من خلال "بنية اللغة وقدرتها على تنويع المعاني وتوسيع احتمالات الخطاب وممكناته"[61] جاعلاً من المجاز مرجعية يستمدّ منها كينونته المعرفية واستمراريته الدّلالية التأويلية. ذلك أنّ "مُواجهة الخصم فكريًّا لا تتمّ إلاّ عبر اكتساب جهاز لغوي يكون فيه دور الحقيقة والمجاز هو المُعوّل عليه في تنويع المعاني والدّلالات حسب موجّهات الخطاب"[62] حضور المرجعية اللغوية له أثر كبير في الصراع الفكري، ممّا يَخدم طرفي المعنى الحقيقة والمجاز لكن المجاز بصفة مباشرة لأنه يَمنح المتكلّم السعة في اختيار المعاني الملائمة.والمتتبّع لمسار التّأويل عند القاضي البيضاوي يرى أنّ المجاز هو المُعوّل عليه في تأويله حيث يُعطيه قصب السّبق في تأمّلاته اللغوية من منظور المُتمكّن في طرحه البياني.

المجاز ومسوّغ التأويل في مدونة البيضاوي:

فهم النصّ وسبر معانيه، هي مباحث ترتبط بوعي القدامى بأنّ الفهم مُرتبط بالتأويل والاجتهاد، وبأنّ مَدار كل ذلك إنّما هو اللغة، فهي "المُنطلَق في تفكيك معاني الملفوظ والتوصّل إلى المدلول، وهي الوسيلة التي يُحاجج بها المُجتهد على فهمه ويَحمل المُكلف على الاقتناع به، وهي المُنتهى لأن تشكّل المعنى لا يكون إلا عبر اللغة"[63] فهو نقطة الغوص في أعماق النص باعتماد حركية الذهن باستفراغ الجهد التأويلي فيه، بُغية إقناع المتلقي بالمعاني المتوصّل إليه من خلال تفكيك عناصر النص، لهذا سنستحضر بعض النماذج المجازية التي سوّغت التأويل في تفسير البيضاوي.

قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ﴾ [64]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يقدّم البيضاوي قراءة تأويلية مفادها: "أي فقل لهم إني قريب، وهو تمثيل لكمال علمه بأفعال العباد وأقوالهم وإطلاعه على أحوالهم بحال من قرب مكانه منهم، روي أن أعرابيا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فنزلت «أجيب دعوة الدّاع إذا دعان» تقريب للقرب ووعد للداعي بالإجابة"[65] لعل التّأويل الذي سارت عليه ذات الرجل وهي تتعامل مع واقع الآية، هو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح معتمدا على دليل منفصل، تمثل في مدونة حديث نبوي، حيث أتى بالتّأويل مقرّبًا للمعنى باعتماد حسّه المعرفي اللغوي صارفا اللفظ عن ظاهره، ثم طعّمه بالحديث كآلية يراها مفيدة في هذا النوع من الفهم. بالإضافة إلى الآلية البيانية المتمثلة في الاستعارة ذات البعد المجازي التي تتكرّر كثيرًا في تأويلات البيضاوي، فإنه "لما تعذّر القرب المكاني في حقه تعالى علمنا أن القرب هاهنا الحال المستعمل في الحال الشبيهة بحال من قرب مكانه إلى مكان القوم من العلم بأحوالهم وأفعالهم والاستماع لأقوالهم فيكون لفظ استعارة تبعية تمثيلية"[66] يأتي هذا النوع من التّأويل ضمن دائرة التّأويل القريب من النص الذي "هو ما احتمله اللفظ احتمالا قويا، فأمكن معرفته بقليل من التأمل واعتمادا على أدنى دليل"[67] وهذا ما ينبئ أنّ انفتاح القراءة التّأويلية على نصوص موازية دلاليا، يتبقى اجتهادات قرائية لا يمكن الاستغناء أو التّعالي عليها، وإلاّ وقع المؤوّل المفسّر في الخطأ.

قال تعالى: ﴿ **وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾[68]

يرى فيها قراءة تأويلية مفادها:"ودلالة على أن تخريب العالم أهون شيء عليه على طريقة التّمثيل والتّخييل، من غير اعتبار القبضة واليمين حقيقة ولا مجازا كقولهم: شابت لمة الليل، والقبضة المرة من القبض أطلقت بمعنى القبضة وهي المقدار المقبوض بالكف تسمية بالمصدر أو بتقدير ذات قبضة، وقرئ بالنصب على الظرف تشبيها للمؤقت بالمبهم، وتأكيد الأرض بالجميع لأن المراد بها الأرضون السبع أو جميع أبعاضها البادية والغائرة"[69] نلحظ أن البيضاوي المفسر المؤول يستحضر في مدونته التفسيرية طرائق يرى لها حق السبق في مثل هذه المواقف، من البحث عن المعنى عبر قنوات تّحليل بنية النص اللغوية، وهذا باعتبار أنّ المعاني تتحصّل عبر القناة اللفظية ، التي تُوصل معنى محدّدا عن طريق حركة الكلام المُتلفظ به لحظة إنتاج المعنى.

بالإضافة إلى عنصر آخر يحضر زمن الحرج التأويلي متمثّلا في الجانب البياني، إذ تعتبر "البنيات البلاغية، الإستعارية، والمجازية، والتشبيهية من أكثر المستويات النصية استدعاء للتأويل"[70] وهو الأمر الذي استثمره البيضاوي على قناعة منه أنه يمكنه من خلالها تبرير فُهومه وتخريجاته؛ ومُعتمدا كذلك على الاشتقاق باعتبار أنّ المادّة الاشتقاقية تقدم في المستوى التأويلي الدّلالات الجزئية المتولدة من الجذر اللغوي داخل القناة التأويلية، وصولا إلى الغاية المنشودة وهي تحقيق الفهم. هذا إلى جانب "القراءات من حيث هي حالات تأخذها الكلمات شكلا، وإعرابا،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ونطقا، جزء من البنيات النصية التي لها دور بارز في توجيه الدلالة وبناء المعنى"[71] وكل ذلك بُغية حماية الفهم من الانحراف عن مقاصده، لأن هذه الطرق التّعبيرية المختلفة من بلاغة ونحو لها دور في تأدية المعنى وإبلاغه، لأنّ مهمة المؤوّل هي اكتشاف قنوات تأدية تلك المعاني .

قال تعالى : ﴿ **وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا** ﴾ [72]

يقول البيضاوي في تفسيرها :"أي ظهرت آيات قدرته وآثار قهره مثل ذلك بما يظهر عند حضور السلطان من آثار هيبته وسياسته"[73] يروم البيضاوي من خلال القراءة التأويلية لمضمون الآية باعتبار أنّه "لما تعذرت الحقيقة حمل الكلام على التّمثيل بأن مثل حاله تعالى في ظهور آيات قدرته وآثار قهره وسلطانه بحال السلطان إذا حضر بنفسه، فإنه حينئذ يظهر من آثار هيبته وسياسته ما لم يظهر بحضور وسائر وزرائه وسائر خواصه، فاستعمل في الحال الأول ما استعمل في الثانية"[74] الحمل على المجاز القائم في التّشبيه ركن إليه البيضاوي لتمرير تخريجه الدّلالي التّأويلي، إذ أتى بمقابل تشبيهي لإثبات القدرة والسلطان بدل المجيء الحقيقي الذي يتطلّب الانتقال من مكان إلى آخر، هذه التعدّدية متعلّقة بإرغامات نصّية "لأنّ التأويل يخضع لقوانين واستراتيجيات نصّية، توجد هذه التعدّدية نحو مسارات تأويلية محتملة ومسوغة نظريا"[75] وهو ما عمل عليه البيضاوي في تأويلاته باعتماد الحفر المعرفي عن اللفظ الداخل في السياق، من أجل تمرير قراءة يراها مناسبة.

نَعضُد هذا التّخريج التأويلي البيضاوي بما وجدناه في شرحه على تحفة الأبرار في الحديث النبوي الشريف قوله في حديث الذات النبوية: "ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة" "لما ثبت بالقواطع العقلية والنّقلية أنه تبارك وتعالى مُنَزّه عن الجسمية والتحيُّز والحُلُول، امتنع عليه النزولُ على معنى الانتقال من موضع أعلى إلى ما هو أخفض منه، بل المعنى به عما ذكره أهلُ الحقّ: دنوُّ رحمته، ومزيد لطفه على العباد، وإجابة دعوتهم، وقَبُول معذرتهم، كما هو دَيدَنُ الملوك الكرماء الرُّحماء إذا نزلوا بقرب قومٍ محتاجين ملهوفين فقراء مستضعفين"[76] فهذه التّخريجات تنمّ عن عميق تضلّع باللغة، والتشبّع بقراءات مختلفة، حيث التّنزيه المطلق هو ما قالت به المعتزلة التي أوّلت تحقيقًا للتّنزيه المطلق فأفسدت الدّال خدمةً للمدلول إذ لَوت عنق اللغة خدمًة لتعطيلاتها المختلفة لصفات الباري تعالى، وهو ما وجدنا البيضاوي يسير في مساره رغم أنه أشعري العقيدة، إلا أن زمن طغيان الفلسفة والردود على المخالفين وتأثّره بتفسيرات المعتزلة على رأسها تفسير الزمخشري الكشّاف هو من أوجد فيه هذه الرؤية.

قوله تعالى: ﴿ **هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ** ﴾ [77]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يُخرِجها مخرجًا مُمتزجةٌ فيه لمسته النحوية واللغوية والبلاغية من أجل تمرير المعنى الذي يتوخّاه، وهي آلياته التي عوّل في كلّ تأويلاته حيث يقول: "هل ينظرون استفهام في معنى النّفي ولذلك جاء بعده إلاّ أن يأتيهم الله أي يأتيهم أمره أو بأسه كقوله تعالى"أو يأتي أمر ربك" "فجاءها بأسنا" أو يأتيهم الله ببأسه فحذف المأتي به للدلالة عليه بقوله تعالى"إن الله عزيز حكيم""[78] والحذف آلية بلاغية متعارف عليها في البيئة البلاغية"سماه أبو عبيدة "مجاز المختصر"،وسماه الجاحظ "الإيجاز المحذوف"، وسماه "الكلام المحذوف"؛ وهو ما يكون بحذف كلمة أو جملة أو أكثر مع قرينة تعين المحذوف، أو هو كما قال ابن الأثير : "أما الإيجاز بالحذف فإنه عجيب الأمر أشبه بالسحر، وذاك أنك ترى فيه ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتمّ ما تكون مبينا إذا لم تبين "[79] تتبين طبيعة الحذف في تحريك ذهنية المؤوّل في استنتاج واستخراج المعاني الغائبة، لذلك يستعمل آلية التّقدير وإعمال حسّه اللغوي، في "التأويل اللغوي يأخذ بالذات إلى عالم النص لتطل عليه من داخله لا من خارجه، فتتحقق حينها عملية إنسجامية اتساقية"[80] وهو عمل البيضاوي عليه، لذلك طعّم البيضاوي رؤيته البلاغية في الآية السالفة الذكر لتبرير تخريجه التّأويلي لكلمة "يأتيهم" التي لم يستسغها فكره الذي يرى بوجوب تأويل الآيات المتعلقة بالأسماء والصفات وعدم تحميلها على قراءتها السطحية بآليات عملت في حقول تأويلية سالفة.

قوله تعالى: ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا** ﴾[81]

يُخرجها تأويليا على نحو مجازي لأن التأويل يرتكز على المجاز "ولأن المجاز ارتحال من دلالة إلى أخرى"[82] لهذا نجده يقول فيها: "أي هو ممسك يقتر بالرزق وغلّ اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود، ولا قصد فيه إلى إثبات يد وغل وبسط ولذلك يستعمل حيث لا يتصور... ونظيره من المجازات المركبة: شابت لمة الليل"[83] يحضر المجاز كمُسوّغ لغوي غايته تقديم تعدّد دلالي عن طريق اتّسامه بالاتّساع المعنوي، مما منح البيضاوي هذا السهولة في تخريجه، عن طريق الاستعارة، ومعناها "أنّ اليهود أخرجوا هذا القول مخرج الإستبخال لله تعالى فكذبهم قوله تعالى "بل يداه مبسوطتان"، وليس المراد بذكر اليدين هاهنا الاثنتين اللتين هما أكثر من الواحدة، إنما يريد به الجارحتين وإنما النعمة في نفي القوة على ذلك الأمر"[84] سار البيضاوي في تأويليه هذا مسار مُخالفيه المعتزلة التي أولت للتنزيه المطلق، إذ وصل الأمر بها إلى تعطيل صفات الباري تعالى وهو ما عمل على إثباته الأشعري ومن أتى بعده ما سُمّيوا بالمتقدّمين من الأشاعرة، أما المتأخرين منهم فقد انحرفوا عن ما سار عليه سلفهم والسبب يعود إلى اختلاط العلوم العقلية متمثلة في الفلسفة فأوغلوا فيها إضافة إلى ردودهم على الملل المنحرفة ما استدعى التسلّح بها ما أدى بهم إلى عدم تمكنهم من التخلّص منها في تفسيراتهم.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

نستنتج في ضوء هذا أن البيضاوي يرتكز على التنوّع المعنوي داخل المجال اللغوي للآيات القرآنية وإخضاعه لمرجعية اللغة لذاتها، مُتجاوزا التّفسير الذي تقدمه اللغة ذاتها إلى رؤية وجه آخر يراه الأنسب لتخريجه؛ فقد رأينا معه أن اللفظ الواحد يمكن أن يُقرأ أكثر من قراءة، بالإضافة إلى ظاهرة تعدّد المعاني: les sens multiples وذلك ما عرض له من مسالك التوسّع عن طريق هذا الضرب من المجاز أو ذاك، بالإضافة إلى بروز عاملين في تأويل النّص عنده أوّلهما سياسي حضاري لما لها من دور في تكوين شخصية الإنسان وفكره وعلمه وثقافته، بسبب شيوع الحشوية وسيطرتها على الساحة المعرفية، إلا "أنّ أصحاب التّفسير العقلي، الذين اصطدموا بالحشوية ، وضاقوا ذرعا بمنهج السلف في محاولة رد هذا الحشو عن طريق صحة السند فقط، بينما هذا الحشو لا يعارض السّمع فقط، بل يعارض العقل.

بهذا انتقل التأويل الذي وضعه الجهمية قديما إلى المعتزلة، ومن المعتزلة انتقل إلى الأشاعرة؛ أما الأخير فهو "مذهبي معرفي ينطلق من التّأسيسات الأشعرية للفكر الديني الذين توسّطوا بين الاثنين، يوفّقون بين المعقول والمنقول، ويتخذون طرقا وسطا بين الفريقين المتضادين، والإسلام إنما أتى ليوجد أمة وسطا"[85] التوفيق بين الرواية والدّراية لتقديم فهم للنص من خلال آليات عاملة في هذا المجال المعرفي المُستند على اللغة. إذا من خلال هذا يمكن القول إنّ الرجل يُعدّ بحق أحد أقطاب "التأويلية العربية القديمة التي اجتهدت لترسيخ قواعد بلاغة تأويلية، يحصل فيها التّلاؤم والانسجام الشّامل بين الفهم والنّص ومقاصده وقيوده المنظومة"[86] يكون البيضاوي قد بلور لنفسه ضمن نطاق التأويلية العربية مجالا معرفيا اعتمد فيه النظر إلى النص على أنه شبكة من العلاقات الدّلالية تحتاج إلى فكّ شفرات معانيها باعتماد آليات مختلفة من لغوية ونحوية واشتقاقية وموازيات نصية وقراءات قرآنية. بهذا يعتبر التأويل إجراء معرفي همه الوحيد إقتحام عالم النصوص، ذلك أن "التأويل تفاعل معرفي بين بنية ذهنية وبنية نصية وبنية سياقية مؤطِّرة لهما، وبنية من النصوص الغائبة والعلوم المرجعية، ولذلك فإنه يحتوي التفسير باعتباره نظرًا في الظواهر، إنه اصطناع لمفتاح الفهم، بلاغة لها أدواتها وحدودها لا إفراط ولا تفريط"[87]التفاعل المعرفي ضمن نطاق التأويل ينشُد المعنى الكامن في باطن الألفاظ، وهذا باعتبار القرآن الكريم حمّال أوجه، والوصول إلى معنى من خلال تعدّد المعاني باعتماد بنيات نصّية وسياقية، فهو يصطنع الفهم من خلال بلاغة لها آلياتها.

الهوامش

[1] – بثينة الجلاصي، النص والتأويل في الخطاب الأصولي (آليات القراءة وسلطة التناص)، دار رؤية، تونس، ط1، 2014، ص09.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

[2] – نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط7، 2008، ص09.

[3] – عبد القادر عبد الجليل، اللغة بين ثنائية التوقيف والمواضعة، دار صفاء، عمان، الأردن، ط1، 2010، ص67.

[4] – سعيد بنسعيد العلوي، الخطاب الأشعري مساهمة في دراسة العقل العربي الإسلامي، منتدى المعارف، بيروت، لبنان، ط2، 2010، ص20.

[5]– محمّد الزّحيلي، القاضي البيضاوي المفسّر الأصولي، دار القلم، دمشق، سوريا، ط1، 1988 ، ص31.

[6]– سمير أحمد معلوف، حيوية اللغة بين الحقيقة والمجاز، منشورات إتحاد كتاب العرب، د ط، 1996، ص45.

[7] – محمد الشيخ عليو محمد، مناهج اللغويين في تقرير العقيدة إلى نهاية القرن الرابع الهجري، مكتبة دار المنهاج، الرياض، السعودية، ط1، 1427هـ، ص86.

[8] – سعيد بن سعيد العلوي، الخطاب الأشعري، ص294.

[9] – نفسه، الصفحة نفسها.

[10]– البيضاوي، منهاج الوصول إلى علم الأصول، تح شعبان محمد إسماعيل، دار ابن حزم، بيروت ، ط1 ، 2008، ص78.

[11] – السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج1، تح محمّد أحمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجّاوي، دار التراث، القاهرة، ط3، د ط، دت ، ، ص64.

[12] – عبد القادر عبد الجليل، اللغة بين ثنائية التوقيف والمواضعة، ص25.

[13] – نفسه، الصفحة نفسها .

[14] – سورة البقرة، آية 31.

[15] – البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج1، تح محمود عبد القادر الأرناؤوط، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 2001، ص55– 56.

[16]– بثينة الجلاّصي، النص والتأويل في الخطاب الأصولي، ص85.

[17] – سورة الروم، آية 22.

[18] – البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج2، ص809.

[19] – نفسه، ج1، ص57.

[20] – سورة الأعراف، آية 71.

[21] – البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل،ج1 ، ص346.

[22]– البيضاوي،شرح أسماء الله الحسنى، تح خالد الجندي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 2011، ص104.

[23] – البيضاوي، منهاج الوصول إلى علم الأصول، ص78.

[24] – نفسه، الصفحة نفسها.

[25] – عبد القادر عبد الجليل، اللغة بين ثنائية التوقيف والمواضعة، ص46.

[26]– تحسين عبد الرضا، الصوت والمعنى في الدرس اللغوي عند العرب في ضوء علم اللغة الحديث، دار دجلة، الأردن، ط1، 2011، ص48.

[27]– البيضاوي، شرح أسماء الله الحسنى، ص311.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

[28] – سمير أحمد معلوف، حيوية اللغة بين الحقيقة والمجاز، منشورات إتحاد كتاب العرب، د ط، 1996، ص428.

[29] – الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه، تح عمر سليمان الأشقر،ج2، دار الصفوة، مصر، ط2، 1992، ص18.

[30] – هيثم سرحان، استراتيجية التأويل الدلالي عند المعتزلة، نادي تراث الإمارات، الإمارات، أبو ظبي،ط1 ، 2012، ص18.

[31] – نفسه، ص21.

[32] – نفسه، ص71.

[33]– سعيد بن سعيد العلوي، الخطاب الأشعري، ص104.

[34] – هيثم سرحان، استراتيجية التأويل الدلالي عند المعتزلة، ص45.

[35] – بثينة الجلاّصي، النص والتأويل في الخطاب الأصولي، ص93.

[36] – أحمد الودرني، قضية اللفظ والمعنى ونظرية الشعر عند العرب من الأصول إلى القرن 7هـ، ج1، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2004، ص255.

[37] – إبراهيم محمد الجرمي، أثر الدلالة اللغوية في اختلاف المسلمين في أصول الدّين، دار قتيبة، بيروت، لبنان، ط1، 2006، ص137.

[38]– سمير أحمد معلوف، حيوية اللغة بين الحقيقة والمجاز، ص53.

[39] – السكاكي، مفتاح العلوم، تح نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1987، ص358.

[40] – سمير أحمد معلوف، حيوية اللغة بين الحقيقة والمجاز، ص422.

[41] – نفسه، ص424.

[42] – سمير أحمد معلوف، حيوية اللغة بين الحقيقة والمجاز، ص424.

[43] – مليكة حفان، إعجاز القرآن بين مبادئ اللغة وأصول العقيدة، مجلة علوم إنسانية، جامعة فاس، المغرب،العدد 34، صيف 2007.

[44]– إبراهيم محمد الجرمي، أثر الدلالة اللغوية في اختلاف المسلمين في أصول الدين، ص140.

[45] – بثينة الجلاّصي، النص والتأويل في الخطاب الأصولي، ص47.

[46] – البيضاوي، منهاج الوصول إلى علم الأصول، ص95.

[47] – نفسه، ص97.

[48] – إبراهيم محمد الجرمي، أثر الدلالة اللغوية في اختلاف المسلمين في أصول الدين، ص140.

[49] – صلاح الدين محمد أحمد، التصوير المجازي والكنائي، مكتبة سعيد رأفت، القاهرة، ط1، 1988، ص26.

[50] – ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح أحمد الحوفي و بدوي طبانة،ج1، دار نهضة مصر، القاهرة، ط2، د س، ص85.

[51] – سمير أحمد معلوف، حيوية اللغة بين الحقيقة والمجاز، ص431 .

[52] – منقور عبد الجليل، النص بين الدلالة والتأويل قراءة في خطاب التراث الأصولي، مكتبة الرشاد، سيدي بلعباس، الجزائر، ط1، 2004، ص6.

[53] – سمير أحمد معلوف، حيوية اللغة بين الحقيقة والمجاز، ص431.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

[54] – أحمد عرابي، جدلية الفعل القرائي عند علماء التراث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 2010، ص25.

[55] – سمير أحمد معلوف، حيوية اللغة بين الحقيقة والمجاز، ص425.

[56]– صابر حباشة، تحليل المعنى مقاربات في علم الدلالة، دار الحامد، عمان، الأردن، ط1، 2011، ص68.

[57] – سورة الملك، آية 07.

[58] – ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح محمد محي الدين عبد الحميد، ج1، دار الجيل، ط5، 1981، ص275.

[59] – البيضاوي، منهاج الوصول إلى علم الأصول، ص97.

[60] – السبكي، الإبهاج في شرح المنهاج ،ج1، ص319.

[61] – بثينة الجلاّصي، النص والتأويل في الخطاب الأصولي، ص317.

[62] – نفسه ، ص321.

[63]– بثينة الجلاّصي، النص والتأويل في الخطاب الأصولي ، ص337.

[64]– سورة البقرة، آية 186.

[65] – البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل،ج1، ص112.

[66]– محي الدين شيخ زاده، حاشية على تفسير القاضي البيضاوي، تح محمد عبد القادر شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1999، ج456.

[67]– الذوادي بن بخوش قوميدي، تأويل النصوص في الفقه الإسلامي (دراسة في منهج التأويل الأصولي)، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 2009، ص206.

[68]– سورة الزمر، آية67.

[69] – البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل،ج2، ص919.

[70]– محمد بازي،التأويلية العربية نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، الدار العربية للعلوم ناشرون و منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010، ص125.

[71] – نفسه، ص173.

[72]– سورة الفجر، آية 22.

[73]– البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل،ج2، ص1153.

[74]– محي الدين شيخ زاده، حاشية محي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي، ج8، تح محمد عبد القادر شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1999، ، ص597.

[75]– محمد بوعزة، استراتيجيات التأويل من النصية إلى التفكيكية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2011، ص57.

[76] – البيضاوي، تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة للبغوي، ج1، تح نور الدين طالب، إدارة الثقافة الإسلامية، ط1، 2012، ، ص364.

[77]– سورة البقرة، آية 210.

[78] – البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج1، ص120.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

[79]– ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج2، تح أحمد الحوفي وبدوي طبانة، ج1، دار نهضة مصر، القاهرة، ط2، د ت، ص268.

[80]– مختار لزعر، التأويلية من الرواية إلى الدراية مبادئ لتأصيل البحث التأويلي العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، وهران، د ط، 2007، ص301.

[81]– سورة المائدة، آية 64.

[82] – علي حرب، التأويل والحقيقة قراءة تأويلية في الثقافة العربية، دار التنوير، بيروت، لبنان، ط2، 2007، ص39.

[83]– البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج1، ص277.

[84] – الشريف الرضي، تلخيص البيان في مجاز القرآن، تح محمد عبد الغني حسن، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2012، ص133.

[85] – علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج1، دار المعارف، القاهرة، ط9، د ت (بتصرّف) ، ص329.

[86]– محمد بازي، التأويلية العربية، ص340.

[87]– نفسه، ص29.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com